

## المحاضرة : نقد عام حول إنجازات الفلسفة الحديثة

إن الطبيعة الخلافية والفكرية التي ميزت العصر الحديث على مستوى تعدد الاتجاهات الفلسفية، " وهذا ما يقدمه لنا تاريخ الفلسفة على أن هناك اتجاهات فلسفية تتعدد بتعدد الفلاسفة، يتفق بعضها مع البعض الآخر في خطوطها الأساسية، وإن اختلفت في بعض تفاصيلها، لكن قد تختلف مذاهب أخرى فيما بينها حتى في خطوطها الأساسية مذاهب أفطون وديكارت وليبنتز مختلفة متميزة لكن بينها اتفاقاً في خطوطها العريضة"<sup>1</sup>، هذه التحولات كانت لها تداعياتها منذ عصر النهضة، إذ " وافقت هذه المذاهب العظمى الحديثة عصر النهضة على هدم يقينتي العصر القديم والعصور الوسطى وإن كانت هي نفسها قد ورثت تلك اليقينية عينها حين أعلنت أنها وصلت إلى المعرفة المطلقة، و صرحت بأنها وضعت مبادئ تصلح أساساً ثابتة ولا تحتوي على مشكلات يراد حلها. ولقد برهن أصحاب هذه المذاهب على قوة في التفكير، ونشاط في البحث، ويقين في العلم، وثقة بالعقل البشري إلى حد لم يعرف له نظير في تاريخ الفلسفة في جميع عصورها"<sup>2</sup> وبهذا كان سعي المذاهب الفلسفية محاولة تقديم صورة وافية عن مسألة الانحراط في مختلف المشكلات المعرفية والسياسية والاخلاقية والدينية .

كل هذه العوامل أسهمت في نشأة الفلسفة العقلانية عند "ديكارت" التي حاولت بطريقتها الخاصة، إنارة الفكر بمعالم الوضوح والدقة في قبول الحقائق الصادقة وتمييزها عن الحقائق الغامضة، وجعل الفلسفة حاوية للحقائق الكلية ومصدر مختلف المعارف التي يحتضنها عقل الانسان، " بما في ذلك الرياضيات التي تعتبر ممارسة عقلية بامتياز لكونها تتمتع بصرامة منهجية لا نظير لها، لأنها العلم الذي يطبق في دراسة الطبيعة"<sup>(2)</sup>، لكن هذه الفكرة لم ترض توجهات "الفلاسفة الوضعيين" في الفترة المعاصرة، فجعلتهم ينظرون للفلسفة نظرة سلبية، ويرفضونها باسم العلم، على اعتبار أن العلم مبني على الاتفاق وأن معارفه يقينية، وتتقبلها جميع العقول البشرية.

إن التيار الفلسفي التجريبي، كان يستهدف وضع حجر الأساس لممرات الفكر التنويري الذي يأخذ صورته من الواقع الخارجي والداخلي للإنسان كتمهيد لإحداث ترميمات

فكرية تتجلى وقائعها على التغييرات المرتقبة على المستوى العلمي والسياسي والاجتماعي والديني والثقافي الذي يبشر بعهد متقدم لمراحل التجربة الإنسانية التي تقوم على خلخلة القواعد الميتافيزيقية التي سجت مفهوم الذات داخل حصون الأفكار الفطرية، ولهذا تمكن "دافيد هيوم" من جر "الذات الديكارتية" إلى تحليل محتواها المعرفي، فلم يعتبرها جوهرًا ثابتًا، بل عمل على تجفيف منابعها الميتافيزيقية. ومن هنا أعطت الفلسفة التجريبية الأضواء الأولى "للفلسفة التحليلية" المعاصرة أن تجد رهاؤها في العلم وتعمل على تثبيت جذورها الفكرية عن طريق المكاسب اللغوية.

لم تكن "فلسفة كانط" فلسفة انقضت مع زمنها، ولكن تعد تاريخيا فلسفة أنجزت البعد النقدي الذي يعطي للفكر هويته الجديدة في الممارسة النظرية والعملية، بحيث قامت بإمداد مفاهيمي وفلسفي من الحجم الكبير الذي لم ينطفئ وهجها ومفعولها، لأنها تمتلك مقاومة مستمرة لا تزال تسجل حضورها في الفلسفة المعاصرة التي تستخدم إستراتيجية النقد في مختلف القضايا الاستيمولوجيا والأخلاقية والسياسية والدينية.

لذلك انتعشت ساحة النقاش الفلسفي والسجال الفكري الذي سمح للفلاسفة بإعادة قراءة النص الكانطي قراءة حية تستجيب لدواعي فكرية حاضرة، لأن الفلسفة مهما كانت قيمتها؛ فإنها تحيا بالنقد وتموت من غير نقد، هكذا كان حال "فلسفة كانط" التي كثر فيها الجدل حول كيفية التوفيق بين المبادئ العقلية الصورية للمعرفة والمصادر الخارجية الحسية التي تأتي منها مواد المعرفة، وهذا ما جعل مؤرخو الفلسفة، يعتبرون أن القرن السابع عشر والقرن الثامن عشر عصر جدال بين العقلانيين والتجريبيين.

لا يغيب على المهتمين بالشأن الفلسفي، أن فلسفة "هيجل" شهدت عودة قوية واهتماما لا مثيل له، ومصدر هذا الاهتمام، هو أن الفلاسفة أجمعوا على أن هذه الفلسفة مازالت تتمتع بخصوبة فكرية تم استثمارها في قطاعات فكرية واسعة، امتدت في مساحات اجتماعية وتاريخية ودينية تشع منها الروح التي توقظ الضمائر الفلسفية الفاعلة في التيارات الغربية المعاصرة، التي أعلنت رغبتها في الذهاب بالفكر الفلسفي والنظر العقلي إلى مناطق اجتماعية وثقافية أكثر تحررا ووعيا بالمرحلة الراهنة، حيث احتضنتها التيارات الماركسية بكل طوائفها فقلبت رأسا على عقب، فأصبح فيها الجانب المادي هو الذي يحدد مختلف الميادين

الأخلاقية والسياسية والاجتماعية والثقافية، فعملت بكل ما أتيت من قوة على وضع مفاهيم فلسفية وعلمية نابعة من صلب الواقع المادي للحياة الإنسانية.

اعتبر القرن التاسع عشر بمثابة مرحلة انتقالية من العصر الحديث إلى العالم المعاصر، ينطبق هذا بشكل خاص على تاريخ الفلسفة. فالخيوط المفهومية التي حيكت في القرن التاسع عشر كانت أيضا جزءا من لحمة التأمل الذي تواصل في الفكر الفلسفي المعاصر، لأن الفكر في هذه المرحلة بدأ يشهد تحولات عميقة حين تشكل في ظل وجود حساسية متنامية لاقتحام الأنساق الفلسفية التي شيدتها الفلسفة العقلانية والتجريبية والقيام بمراجعة الكثير من المفاهيم التي عششت داخل الفكر الفلسفي السابق، يقول المفكر "عزمي إسلام" في كتابه اتجاهات في الفلسفة المعاصرة ما يلي: "نحن لا نكاد نجد لدى أغلب الفلاسفة المعاصرين هذه الأنساق الفكرية الهائلة والمذاهب الفلسفية الضخمة التي نجدها في الفلسفات التقليدية. إنما نجد نزعات تحليلية يتوخى أصحابها الاهتمام بالمنهج وبحرصون حرصا شديدا على الوضوح في الفكر والمعنى، وكذلك الدقة البالغة في استخدام اللغة وأساليب التعبير"<sup>(1)</sup>.

هذا التحليل يعد بمثابة الأسلوب المعرفي الموجه إلى روح الفلسفة، بحيث يكون مركزا على بيان قيمتها في توجيه النشاط العلمي، سواء أكان ذلك الطرح من قبل التيار العقلاني أو التيار التجريبي أو الوضعي، مع العلم أن "أساس الوضعية المنطقية هو تحليل اللغة سواء اللغة الطبيعية العادية، أو اللغة العلمية واللغة الفلسفية، لأن أصحابها يزعمون أن الخلافات بين الآراء والمذاهب الفلسفية، إنما ترجع إلى سوء فهم أو سوء تحليل للتصورات الفلسفية، وكأن المشاكل الفلسفية ما هي إلا خلافات ناجمة عن اشتراك في معاني الاصطلاحات الفلسفية"<sup>2</sup>.

غالبا ما يربط مؤرخو الفلسفة بداية الفلسفة المعاصرة ببداية المنتصف الثاني من القرن التاسع عشر. ومن أهم الأحداث التي عرفتها الفلسفة المعاصرة هناك حدثان بارزان: يتمثل الأول في الثورة العلمية في مجال العلوم الدقيقة كالرياضيات و الفيزياء والبيولوجيا التي أخذت في التوسع بشكل متسارع جدا. ويتمثل الثاني في ظهور ما يسمى بالعلوم الإنسانية كعلم النفس و علم الاجتماع و الأنثروبولوجيا التي بدأت تفرض نفسها بقوة على الساحة الفكرية.

وقد استفادت الفلسفة المعاصرة من هذين الحداثين فاتجه اهتمامها أولاً إلى دراسة ونقد المعرفة العلمية في إطار ما يسمى بالدراسات الإبيستيمولوجية أو فلسفة العلم، بالإضافة إلى الأبحاث اللسانية، واتجه اهتمامها ثانياً إلى دراسة الإنسان والاهتمام بقضاياها الأساسية كمسألة الإدراك والوعي وعلاقتها بالعالم، وكذلك البحث عن معنى الوجود الإنساني، ومعالجة قضايا الإنسان السياسية والاجتماعية. كما يمكن أن نشير أيضاً إلى اهتمام كثير من الفلاسفة المعاصرين بنقد المفاهيم الفلسفية الكلاسيكية في محاولة منهم لتجاوز الفلسفة الميتافيزيقية ومحكمة قضاياها وإعادة الاعتبار للجوانب المهمشة واللامفكر فيها. "الفلسفة الغربية في القرن العشرين الميلادي، أي الفلسفة الغربية الحالية بالعنى الحقيقي إنما ظهرت أساساً من المجابهة مع الفلسفة الغربية الحديثة، وهي مجابهة فيها اختلاف وصراع، ولكنها تحتوي أيضاً على عنصر الاستمرار وعلى جهد من جانب الفلسفة الحالية في محاولتها أن تتمايز عن الفلسفة الحديثة وأن تتعدها. لذلك، فلا بد، من أجل فهم هذه الفلسفة الحالية، فهي معرفة الماضي" <sup>1</sup>

من هنا شعرت الفلسفة المعاصرة، بأن هناك مهمة جديدة تنتظرها أكثر من أي وقت مضى، إنها تفكيك الميتافيزيقا التقليدية والإطاحة بالمفاهيم الكبرى التي تقف خلفها وتمزيق تلك الأقنعة عنها، فلم تتردد طموحات الفلاسفة أن تجد فتحة معرفياً في مسالك النقد والهدم للأنساق الفكرية العتيقة التي اعتنقت صور العقلانية وإحلال مكانها اللاعقلانية وجعلها العقلانية المقبلة التي سيطر عليها أفق الفكر الفلسفي المعاصر في العمل على زحزحة المفاهيم الكبرى من مواقعها: العقل، الأخلاق، الدين، الحرية، وكل المقولات المركزية التي انبنى عليها تاريخ الفكر كمقبرة مفتوحة تستوعب الاستعارات الميتة.

خاتمة:

لقد كان السجال الذي وقع حول المعرفة في العصر الحديث يبنى بوجود خلافات عميقة حول نوعية الطرح الفلسفي الذي تقدم به الفلاسفة في مواجهة مختلف التأثيرات الدينية والسياسية التي مر بها المجتمع الأوروبي آنذاك، لذلك كانت الفلسفة الديكارتية بوابة فلسفية مهمة في تاريخ الفكر الفلسفي، فحظيت بمكانة متميزة في الفلسفة بوجه عام وفي الثقافة الفرنسية بوجه خاص، إذ أشرت بدورها التأسيس للحدثة الفكرية حين خاضت بقوة في

مسائل عقلية وميتافيزيقية لها صلة مباشرة بنظرية المعرفة وممارسة الشك في الموروث الفلسفي الذي تركته ثقافة العصور الوسطى، لذلك كان شعارها الوضوح واليقين في تحصيل المعارف وطلب الحقيقة، هذا ما جعل هذه الفلسفة العقلية تتمركز حول مفهوم الذات وتأسيسها من حيث بدايتها التاريخية والفلسفية.

أما التيار التجريبي، فقد نجح في مشروعه الفلسفي حين خالف ما ذهب إليه التيار العقلاني في ما يخص المداخل التي قدمها حول تصوره لنظرية المعرفة، فكانت تجريبية "جون لوك" ممرافلسفيا مهما في وضع حجر الأساس للفكر التنويري والعودة إلى منابع التجربة واستثمارها في فهم الظواهر الطبيعية وإعادة تشكيل مفهوم المعرفة، كما فعل أيضا "دافيد هيوم" الاستئناس بالتجربة والقيام بخلخلة القواعد الميتافيزيقية التي سجت مفهوم الذات في حضن الأفكار الفطرية، إذ تمكن من هذا الباب جر الذات الديكارتية إلى محاكمة معرفية من خلال تحليل محتواها المعرفي وتغيير مفهوم الجوهر وتخفيف منابعها الميتافيزيقية التي كانت تتغذى منها، لهذا أعطت الفلسفة التجريبية ديناميكية كبيرة لنظرية المعرفة في جانبها النفسي حين تفتنت في تقدير قيمتها، فكانت بمثابة الأضواء الأولى في تغيير المناخ الاجتماعي والسياسي والديني الذي عاشه الفكر الأوروبي.

أما الفلسفة الكانطية، فقد رسمت معالم جديدة تركزت حول تأسيس مفهوم النقد الذي اعتبره "كانط" بمثابة إستراتيجية قوية في رسم خارطة فكرية ذات دعائم قوية في مواجهة الإرث العقلاني والتجريبي، لهذا تعد هذه الفلسفة تاريخيا فلسفة نقدية بامتياز، كونها نقلت الهموم الإشكالية من العقل النظري إلى العقل العملي.

كل هذه التحولات العميقة التي سجلتها فلسفة "هيجل" و"ماركس" و"انجلز" من انجازات فلسفية وعلمية في المرحلة الحديثة في الأبعاد الروحية والمادية الاقتصادية والاجتماعية، قد حصلت بفضل تناول نظرية المعرفة في ضوء الطرح الإشكالي والابستمولوجي، فترك بنية العقل الفلسفي تستفيد من التغيرات التي أحدثها العقل العلمي في تصوراته الابستمولوجية الناشئة في وقت مبكر جدا، فأضحت هذه المساحات المعرفية مفتوحة بشكل واسع على النقد الابستمولوجي الذي مس عمق الحياة الاجتماعية والسياسية والدينية في الآونة

المعاصرة وتحول قبلة الاستثمارات الفلسفية من (الذات) الوعي إلى بروز فلسفات اللاوعي ومحاولة الحفر في مفهوما النفسي والاجتماعي والأنثروبولوجي والألسني.

---

### المصادر والمراجع:

- محمود زيدان: مناهج البحث الفلسفي.
- محمد غلاب: المذاهب الفلسفية العظمى في العصور الحديثة، دار احياء الكتب العربية، مصر 1948.
- Paul Hazard : La pens ée europ éenne aux 18 si ècle, Ed. Fayard, 1993.
- \* Robert Nadeau : Vocabulaire technique et analytique de l'épistémologie, PUF, - Paris, 1999, p.484.
- عزمي إسلام، اتجاهات في الفلسفة المعاصرة، وكالة المطبوعات، الكويت، 1980.
- عبد الرحمن بدوي: موسوعة الفلسفة، الجزء الثاني، المؤسسة العربية للدراسات والنشر بيروت- لبنان، ط1، 1984.
- بوخنسكي: تاريخ الفلسفة المعاصرة في أوروبا، ترجمة محمد عبد الكريم الوافي، مكتبة الفرجاني، طرابلس، ليبيا، 1979.